

أشكال الأغنية الشعبية في الغرب الجزائري

صليحة سنوسي*

يمثل الغرب الجزائري وحدةً جغرافية واجتماعية واحدة كانت تمارس فيها عادات وتقاليد متشابهة غير أنها تفرقت بفعل العوامل والظروف الحضارية والتاريخية، و من بين هذا الإرث الشعبي الأغاني الشعبية التي توارثتها الأجيال واتخذت منها أشكالاً وإيقاعات مختلفة.

التصقت الأغنية الشعبية بالحياة الاجتماعية الجزائرية فسارت جنباً إلى جنب مع الإنسان البدوي، حاضرة في كلِّ مناسباته، تخفّف عن ألمه في موضع الحزن، وتزيده سعادة في موضع الفرح.

يؤدى كلُّ نوع من هذه الأنواع وظيفة معينة، "ومعنى هذا أنّ أغاني الأفراح والختان والسبوع تثير الإحساس بالسعادة والفرح، وأنّ الأغاني التي تنشد في مناسبات دينية تتمثل وظيفتها في إيقاظ القيم الدينية والإحساس الديني عند الشعب"¹. كما تكشف لنا عن واقع معاش لمجتمع معيّن وأنظمتها السائدة ومشاكله المختلفة، ونشير هنا إلى شكلين أساسيين من الأغاني.

الأغاني الفردية

تعبّر المرأة عن نفسيّتها الداخلية من فرح أو حزن عن طريق دندنتها، ثم تنتشر بعد ذلك في الأوساط الشعبية لتغنى في المناسبات فتصبح أغنية جماعية. والأغنية الفردية موجودة "منذ القدم في المهددات والألحان

* باحثة دائمة بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية و الثقافية
¹ إبراهيم، نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، القاهرة، دار المعارف، 1119، كورنيش النيل، الطبعة 3، ص.224.

الإيقاعية للأطفال ونواح الأمهات وغناء العجائز والندب وارتجال الرثاء...كلها تستحضر جوا لا تكلف فيه...².

تكتسب الأغنية الفردية عن طريق الموهبة الوراثية، تتسع بعد ذلك جموعا من النساء. ومن الأغاني الفردية هناك أغاني ترددها الأم من أجل تنويم طفلها الصغير أو إسكاته، تعبر من خلالها عن تعلقها العميق به و تحويل حياتها إلى فرح.

ففي هذا الجو المملوء بالسعادة والشوق والحنان، يعلو صوت الأم الحنون ليردد أغاني رقيقة وجميلة أو كما يطلق عليها: "تراري"³ فإذا مرض طفلها ليلا تقوم بعنايته وتغطيته وتبدأ في الغناء تقول:

يَا بَارِي يَا بَارِي يَا رَفَادُ الدَّرَارِ
يَا بَارِي وَيُبْرُ بَرْكُ نَطْلُبُ رَبِّي يَسَلِّمُكَ
أَيْسَلِّمُكَ وَيُنَجِّيكُ وَيَحِيدُ الْبَلَاءَ عَلَيْكَ⁴

رغم بساطة أفكار هذه الأغنية إلا أنها تحمل في طياتها كلمات ومعاني عميقة عمق مشاعر الأم النبيلة وهي تغطيه بحبها وحنانها.

وتقول أغنية أخرى خاصة إذا كان للأم أعداء:

نَيْنِي يَا نَيْنِي وَلَا نَيْنِي عُدُوكُ مَهْنِي
أَيْنِينِي فِي الْجَبَّائَةِ وَالْأَعْلَى صُورُ مَدْلِي
إِلَى دَعَا عَلَيْكَ وَعَلِيَّ اللَّهُ مَا يَعْطِيهِ دَرِي
يَعْطِيهِ الْعَمَى فِي الْعَيْنِ وَيَزِيدُ لَهُ سَاسِيَّةً⁵

² بلاشير، رجيس، تاريخ الأدب العربي - ترجمة إبراهيم الكيلاني، تونس، دار التونسية للنشر؛ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، سنة 1986، ج 1، ص.379.

³ أغاني وندونات تغنيها الأم لأطفالها يطلق عليها "المرازية"

⁴ ديسبارمي، جوزيف، كتاب الفوائد في العوائد والقواعد والعقائد، الجزائر، طبع بمطبعة جو ردان، سنة 1913، ص.30.

⁵ المصدر نفسه، ص.31.

وعندما ينقطع الطفل عن البكاء تقول:

وَلَدِي يَا زَيْنَ الزَيْنِ كَحَلِّ الْحَاجِبِ وَالْعَيْنِ
حَبِّكَ رَبِّي وَرِضَاكَ وَالْقُرْآنَ دَائِمَ مَعَاكَ

تتنوع الأغاني الفردية النسائية الى أغاني دينية خاصة بهنّ أو كما يسمى "المديح" وهي أغاني خاصة بمدح الرسول "صلى الله عليه وسلم"، غالبا ما تكون مأخوذة من قصائد مشهورة للمديح الديني التي نظمها بعض شعراء الأولياء. يقول هذا المديح:

اللَّهُ اللَّهُ يَا مُوَلَّانَا مَصْمُودَةَ نَبْغِي نُجَيْكُ
ذَكُرُوا لِي الْعُشَّاقَ فَيْكُ غِي نَأَسَ الْجَلَّالَةَ
رَأَيْ مَاشِي * لِلْعَزِيبِ وَنَسْرَحَ مَا لَ سَيَادِي
نَشْرُبُ كَاسَ مِنَ الْحَلِيبِ يَصْبِحُ قَلْبِي * رَاوِي
يَا * الْخَاضِي خُوضَ الطَّرِيقِ لَاتَاخُضْشُ * إِيصَارَا
هَذَا الدَّنْيَا مَا الدُّومُ يَا الْعَافِلَ غَرَارَةَ

كلمات تتلفظها النسوة وهنّ يمارسن أشغالهن، تعبّر عن الصلة الوثيقة بينهنّ وبين الدين الإسلامي الحنيف، ووعيهنّ بأمور الدين، فهي تتمنى زيارة البقاع المقدّسة التي طالما حلمت بالوصول إليها.

ويوجد نوع آخر من الغناء الفردي يؤديه الرجل عند ركوبه الفرس ويسمى في الغرب الجزائري "بالتعياط". كمصطلح نعني به: صَاحَ، والعامّة تقول: "عَيْطَ له" أي ناداه، وعَيْطُ القوم: صاحوا واجلبوا - العَيْطُ: الصِّيَاحُ.⁷

⁶ منقولة عن طريق السماع. المجاهدة (خيرة ابنة حمو) 60 سنة، سيدي بلعباس، جوان 2001.

* مسمودة: مكة المكرمة * راوي: الإرتواء * الخاضي: الأخذ

* العزيب: مكان الرعي * إيصارا: اليسار

⁷ توتل، فردينان، المنجد في الأدب و العلوم، بيروت، سنة 1956، ص. 540.

التعياط هو نوع من الموال تتميز به مناطق الغرب، و الشرق الجزائري في مناسبات تقليدية "كالفروسية" وَالْوَعْدَةُ، حيث تبدأ جماعة الفرسان في السماع إلى (تعياط) أحدهم وعند نهايته تطلق نار البنادق وتشرع النسوة في الزغاريد.

كثيرا ما يكون الغرض منه هو "النّعي على ما أصاب الحياة من تخلخل في القيم الأخلاقية من ناحية، والإشادة بالسلوك الذي يتّسم بالرجولة والأصالة من ناحية أخرى"⁸

تقول نبيلة إبراهيم: "أفضل ما يلائم الغناء الفردي في هذه الحالة هو الموال"⁹

يصاحب التعياط إحساساً مرهفاً وشعوراً بالحنين، يتميز بصوت قويّ مع نبرات مرهفة، تتعالى معها ألحان الكلمات ثم تتقلص وكأنها تنبعث من وراء زمن اندثر مع اندثار تقاليده وعاداته التي مازال بعضها يصارع غزو الثقافات الأجنبية.

الأغاني الجماعية

تقوم بها مجموعة من النساء أو الرجال في شكل أغاني جماعية تغنى حسب مواضيع ومناسبات الأغنية، تكمن وظيفتها في الترفيه والتسلية من جهة والإشادة بالقيم الأخلاقية والاجتماعية من جهة أخرى.

مواضيعها

تتأقّلت الأغنية عن الآباء إلى الأبناء والبنات عن الأمهات، حملت في طياتها معان وأفكار يتحلّى بها المجتمع فاختلقت وتنوعت حسب المواضيع "كما حملت عادات وخرافات ومعتقدات متنوعة"¹⁰.

⁸ الد. إبراهيم، نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص. 236.

⁹ المصدر نفسه، ص. 234.

¹⁰ حرب، طلال، أولية النص. نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص. 219.

يمكننا أن نقسم هذه المواضيع وفقا للوظيفة والمضمون إلى ثلاثة أقسام هي: الأغاني الدينية، أغاني العمل، أغاني الأفراح وكل موضوع من هذه المواضيع الثلاثة يؤدي وظيفة معينة في حياة الشعب ويبين ملامحه الخاصة به.

الأغاني الدينية

يتميز هذا النوع من المدح بإيقاعات وتلحين خاص، عادة ما يكون مرتبط بالمشاعر الدينية، تارة يأخذ طابع الدعاء والتضرع إلى الخالق ورسوله، وتارة الاستعانة بالأولياء الصالحين والزوايا،

مثل: أصحاب الذكر أو ما يسمى "بالفُقْرَة" أو "الفُقَيْرَات" وهم منتشرون في بعض الزوايا التي تختلف حسب ميولها وطقوسها، منها ما يؤدي بالآلات موسيقية، ومنها ما يؤدي بالرقص أو ما يسمى "بالجَذْبَة"¹¹ ومنها ما يخرج عن الآلة ويكتفي بالذكر فقط.

ومن بين أغاني التضرع إلى الخالق والاستعانة بالأولياء أغنية قديمة قِدَم تراث الثقافة الجزائرية "أغنية غُنْجَة"¹²، التي ترددها مجموعة من النساء وهنَّ يَسِرْنَ في الشوارع عندما يحل الجفاف وينقطع الماء، حيث يتم جمع المواد الغذائية من البيوت ليصنع منها الطعام بعد نهاية الدورة ويأكل الجميع. تقول الأغنية:

غُنْجَة حَلَيْتْ رَاسَهَا يَا رَبِّي بَلْ خَرَّاسَهَا
غُنْجَة طَالَبَ الرَّجَا يَا رَبِّي عَطِينَا النُّوْ

¹¹ "الجذبة": هي نوع من الرقص الشعبي.

¹² خليفي، عبد القادر (من الموروث الثقافي الجمعي المغربي) الثقافة الشعبية مجلة تعنى بمواد التراث الشعبي جامعة تلمسان سنة 1415، العدد 02، ص. 131. «غنجة»: عادة سابقة لظهور الإسلام، يتضح ذلك من اسمها المحول عن الاسم الأمازيغي للملحقة- تاغنجابت- وهي التي ترفع في مقدمة الموكب ويلبس هذه الملحقة ثيابا وكأنها عروس كانت تزف للآلهة وتقدم قربانا وقد اختفت هذه العادة بعد انتشار الوعي الإسلامي.

يَا النُّوْ صُيِّي صُيِّي حَتَّى يَجِي حَمُو حُوِيَّ
وَيُعْطِينِي بِالرَّرِيْبِيَّةِ

وتنقسم النساء إلى مجموعتين :

| | |
|---------------------------|--------------------------------------|
| المجموعة الأولى | المجموعة الثانية |
| النَّعْجَةُ عَطْشَانَةٌ | بَلْهًا يَا مُوْلَانَا |
| الْمِعْرَ عَطْشَانَةٌ | بَلْهًا يَا مُوْلَانَا |
| الشَّجْرَةَ عَطْشَانَةٌ | بَلْهًا يَا مُوْلَانَا |
| السُّبُوْلَةَ عَطْشَانَةٌ | بَلْهًا يَا مُوْلَانَا ¹³ |

الهدف من الأغنية هو طلب الاستعانة بالله سبحانه وتعالى عند تأثرهم بالجفاف و تأثر نباتهم ومزروعاتهم التي كانت رزقهم الوحيد فتحولت هذه الاستعانة فيما بعد إلى اتخاذ بعض المواقع وسيلة للتقرب إلى الله "كالأولياء"، عن طريق ذبح الأغنام وإقامة الولائم، وإطعام الناس ويسمون ذلك "بَرَّرْدَةَ فُلَان" ¹⁴.

اشتهرت المنطقة بأغنية دينية أخرى تسمى أغنية "عَارْفَا" ¹⁵ يؤديها النسوة يوم الوقوف على عرفات، حيث يقمن بجمع المواد الغذائية (كالكسكس، القهوة، الشاي...) وهنَّ يَطْفَنُ البيوت.

تتضمن في هذه الأغنية أشكالاً وبوادراً ثقافية شعبية منها: الأدعية وبعض المعتقدات الشعبية المختلفة. تقول الأغنية:

¹³ منقولة عن طريق السماع ومذكورة في كتاب الفوائد في العوائد والقواعد والعقائد - لديسبارمي - ص. 89.

¹⁴ "زردة فلان" إحدى الولائم تقام لضريح معين من أجل التوسط إلى الله لسقوط المطر.

¹⁵ "عارفا": أغنية خاصة بيوم الوقوف على عرفات.

عَارْفَةَ مَبَارَكَةَ مِيمُونَةَ حَمُو حَمُو نَوْضُ حَيْتَكَ وَمَرْتَكَ
عَارْفَةَ مَبَارَكَةَ مِيمُونَةَ حَمُو حَمُو نَوْضُ حَيْتَكَ تَطْلُبُ عَارْفَةَ
لَيْلَةَ عَشْرَ وَالْمَالِ الشَّارِطَةَ فَيَدُ الصَّغَارُ شَيْخَ الْكَبَارِ¹⁶

تنوعت الأغاني الدينية و تعددت مناسباتها ومواضيعها منها الخاصة بالمولد النبوي الشريف أو ما يطلق عليها في الغرب الجزائري باسم: "التبراش"¹⁷ حيث تتجمع النسوة ليلة المولد النبوي الشريف في إحدى المنازل من أجل تأدية أغاني متنوعة بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن بين هذه الأغاني أغنية معروفة لدى معظم النساء تقول:

يَا عَيْشَةَ لَا تُرْقِدِي يَا عَيْشَةَ لَا تُرْقِدِي
حَلِ الْبَابِ وَأَصْنَتِي وَاللَّيْلَةَ يَزِيدُ النَّبِي
الْبَارِحُ زَادَ وَتَسَمَى وَجَمَاعَةَ مِلْتَمَى¹⁸

أما الأغنية الثانية التي لها نفس الغرض تقول:

صَلَى اللَّهُ عَلَيْكَ يَا نُبِيْنَا وَالْهَاشِمِي يَا رَسُولَ اللَّهِ
أَصْلَيْتُ عَلَيْكَ دِيمَا دِيمَا وَشَرِيفٌ وُلْدٌ حَلِيمَةَ
الْحَالِقِ الْبُرِّ وَالْمَا وَيَفِكْنَا مِنْ صَهْدَاتِ النَّارِ
أَصْلَيْتُ عَلَيْكَ قَدْ النَّعْجَةَ قَدْ مَا فِيهَا مِنْ صُوفَةٍ
قَدْ مَا جَابَتْ مِنْ خِرْفَانٍ
أَصْلَيْتُ عَلَيْكَ قَدْ النَّاقَةَ قَدْ مَا فِيهَا مِنْ وَبَرٍ
قَدْ مَا جَابَتْ مِنْ حِيرَانٍ
أَصْلَيْتُ عَلَيْكَ قَدْ الشَّجْرَةَ قَدْ مَا فِيهَا مِنْ وَرْقَةٍ
قَدْ مَا جَابَتْ مِنْ لُثْمَارٍ¹⁹

¹⁶ منقولة عن طريق السماع المجاهدة (بودلال حليلة)، 60 سنة، وهران، جوان 2001.

¹⁷ التبراش: هي أغاني ليلة المولد النبوي الشريف تتجمع النسوة وتشعل الشموع وتبدأ في الغناء (أغاني خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم).

¹⁸ منقولة عن طريق السماع المجاهدة (بودلال حليلة).

الهدف الرئيسي من هاتين الأغنيتين هو إيقاظ الروح الدينية و انفتاح الوعي الإسلامي إلى جانب الدراية الواسعة بالتعاليم الثقافية الإسلامية والتمسك بمبادئها.

أغاني العمل

هي أغاني جماعية يردها رجال ونساء أثناء العمل، خاصة العمل الزراعي كمواسم الزرع والحصد، وعادة تؤدي في عمليات تطوعية أو تعاونية جماعية تسمى "بالتويرّة" كغسل القمح أو الصوف.

وصل إلينا هذا الغناء منذ القديم مثلا (عمال المسلمين أثناء بناء مسجد المدينة أو حفر الخنادق لإيقاف زحف المكيبين أثناء غزوة خندق... والأبيات التي كان ينشدها المؤمنون أثناء هدمهم كنيسة القديس يوحنا في دمشق²⁰

تتميز أغاني العمل بدندنات لأغاني قديمة أو تقليدية تطول مع طول العمل "ولهذا نجد أن أغنية العمل قد تفتقد الوحدة الموضوعية"²¹ فهي غير مرتبطة بموضوع العمل، وأحيانا أغاني على شكل مدائح دينية.

تنحصر وظيفتها الأساسية في التسهيل والتخفيف من عناء العمل وحث الجماعة على الاستمرار والصبر في العمل بإيقاع موحد ومتناسك، فالعمال والفلاحون كثيرا ما يستعينون بالأغاني في أعمالهم اليومية أو الموسمية ولطول ساعات العمل "يضطر المغني إلى أن يضيف إلى الأغنية كل ما يطرأ على ذهنه من كلام، مادام هذا الكلام صالحا لأن ينساق مع لحن الأغنية"²². كما أنها تؤدي بدون آلات موسيقية، تتخللها في بعض الأحيان أوامر لأجل التحفيز على العمل وكذلك تحفيز الدواب على المشي أو الدوران، كما تقول هذه الأغنية:

¹⁹ المرجع السابق.

²⁰ الد. بلاشير، رجيس، تاريخ الأدب العربي، ج1، ص.ص. 379-380.

²¹ إبراهيم، نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص. 231.

²² المرجع السابق، ص.ص. 231-232.

| | |
|-----------------------------|---------------------|
| اللَّهِ يَنْعَلُ الْكَافِرُ | أَقْلَبُ الْحَافِرُ |
| وَالْبَاكُورُ حَرَفُ | طَرَفُ طَرَفُ |
| وَالخُبْرُ زَايِدُ | دَوْرُ عَايِدُ |
| بَاشُ تَاكُلُ الْمَلُوي 23 | أَلُوي لُوي |

أغاني الأفراح

تخرج من النطاق السابق إلى نطاق الإيقاع الغنائي الراقص، الذي يثير الإحساس بالسعادة والابتهاج، كما تمثل هذه الأغاني جوانب واقعية في بناء المجتمع، مرتبطة بالمناسبات والأفراح مثل: الزواج والأعياد.

ومن بين هذه الأغاني الشعبية المعروفة على مستوى المنطقة أغنية الصف المتمركزة بضواحي تلمسان، الأغنية البدوية في أغلب مناطق الغرب أخص بالذكر مستغانم، غليزان وهران....، أغنية الراي بوهان....

فلا تخلوا مناسبة أو وليمة إلا وكانت الأغنية حاضرة تمارس بجميع أشكالها وبالتالي لعبت الدور الأكبر في الحفاظ على أصالة الأغنية وبلورة الشخصية الوطنية فتتحول من التلقائية و الترفيه إلى نشاط يؤكد عروبة الجزائر ويبرهن على تاريخها و عراققتها.

بتعدّد موضوعات الأغنية الشعبية عامة وتنوع اقتراحاتها تظّل فنا من فنون الثقافة الشعبية الجزائرية، تحمل العديد من المرجعيات التاريخية والاجتماعية، النفسية والسياسية..الخ.

²³ منقولة عن طريق السماع (خيرة ابنة حمو)، سيدي بلعباس.